التصوف مفتاح العلم والسعادة

للأستاذ حسن عباس زكي

سبيل التصوف ، التصوف بمعناه الحقيقي ، هو تطهير القلوب من الرجس وتنقية الوجدان من شوائب الدنس ، حتى يمهد لأرواحنا الطريق للانطلاق من قيود الأسر والاستعباد المادي لتتصل بالعالم الحقيقي وبالقوة العليا التي تملك أمر هذا الوجود ونتلقى عنها ما يسبغ على عالمنا الأمن والطمأنينة والإستقرار .

إننا في هذا العالم الصاخب المتشابك أحوج ماتكون إلى التصوف لنرتبط بالروح الكبرى القادرة ، لتعصمنا من الطغيان المادي واستعباده) وتخفف عن الإنسانية القلق والضيق . وتجعل كلامنا يحس في نفسه وفي قلبه الحب والحنان والجمال ، ويتبين الوحدة الكاملة بين أجزاء هذا الكون ، ويكشف عما فيه من أسرار ، فيترفع عن أن يدين بالماديات التي تعرقل النمو الروحي ، وتخضع صاحبها لسيطرة الضرورة التي تقفل أمام القلب كل أبواب الأمل والرجاء ، وتجعل الحياة بلا غاية ولا مقصد « وتتركنا للاهواء نعيش بلا طائل ، ونحيادون فائدة وتغمرنا موجات القرم والأسى ، وتستولي علينا مشاعر السخط والضيق ، وتدب بيننا عقارب الفوقة والنقمة والخلاف :

إننا في حاجة إلى التصوف للاستعانه بمبادئه على إدراك التناسق بين الكائنات جميعها ، لتوطيد أركان المحبة ، وإبراز نواحي التعاون والسير في طريق العمل المنتج المثمر .

أيها السادة .

أن التصوف جاذبية عظمى لا يدركها إلا من تفيأ ظلالها ولا يحس بجلالها وجمالها إلا من عاش في تجاربها ، أن له طاقته الخالدة الآسرة ، لأنه يرفع المتصوف

من عالم الضلال إلى عالم الهدى ، وينقشه من وحدة الحيره إلى قمة الأمن ، ويصله بالطاقة الكبرى طاقة الملكوت الأعلى والخلود الأبدى ، فيرى نور الحقيقة ، ويغمره فيض من الإشراق والصفاء والطهر والجلال ، فيعيش ومقصده الخير والكمال ، ويسمى ورائده الحب والفناء وهنا يحس الفرحة الكبرى والقوة العظمى ، ويدرك إن كل عمل لصالح المجموع هو لصالحه . وكل خير يعود على غيره هو عائد على نفسه ، لأنه جزء عن الوجود كله .

ومن هنا كان التصوف مفتاح العلم ، وكان الباب الذى نفذ منه العلماء وانتفعوا به فى مجال التطبيق والتجربة ، فتفتحت أمامهم الأفاق التى أرتادوها ، ووصلوا بذلك إلى ما فى الكون من أسرار .

ولئن كان العلم يعتمد على العمل ، فإن التصوف يعتمد فى كشف أسرار الحياة على الروح والوجدان . والعقل محدود بحدود المادة التى يعيش فيها ، ومتأثر بالمؤثرات الكثيرة التى تحيط بصاحبه من البيئة والوارثة والإنفعالات النفسية والجسمية ولذا كان له حدود التى لا يستطيع أن يتخطاها . أما الروح فلا شىء يقف أمامه لأنه خالد باق . ومن هنا كان إدراكه للحقائق والأسرار عن طريق الإلهام والإلهام والإدراك اللدنى ، لأنه يتخطى الآماد الشاسعه ، دون أن يحتاج إلى تجارب فى معامل ودون أن يحتاج إلى أدوات على أن كشف الأرواح إنما يكون لخير الشربة والسمو بها عن التناحر والتصارع .

أنه الكشف الذى لا يرتفع على جثث القتلى ، ولا يخوض بحار الدم ، ولا يتجه إلى فناء العالم وهدم المدنية وتسخير العلم فى غير ما خلق له ، وما أن يتجه إليه من الخير للإنسانية وتوفير الحياة السعيدة .

لبنى البشر .

أيها السادة :

هذه هى غاية التصوف أنه حركة وعمل ونجاح ، وليس عزلة وتقشفا وزهدا عن الحياة ، على أن ما فيه من ذلك يجب ألا يؤخذ على سبيل التعميم يكون ضد الحياة

وضد تطور المجتمع ، وحجر عثرة فى سبيل التقدم . انه بذلك يمنع صاحبه من أن يفكر تفكيراً إيجابيا سليما ، ويجعله يعيش حياته ضعيفاً متخاذلا عالة على المجتمع يأخذ منه ولا يعطيه ويشقى بسلوكه نفسه ويشقيه .

فالتقشف والإنعزال إذا جاز تطبيقهما على فئة من الناس لتهذيب أرواحهم والسمو بها ، فلا بد أن ندرك أن ذلك أمر لا ينبغى طرحه على المجتمع للسير اجمالا فى هذا السبيل .

أما ينبغى أن ندرك أن التصوف عامة ، هو أن نعيش الحياة أن نعيش كل ساعة بل كل لحظة فيها ، نستمتع بجمالها لأنه موهوب ، لا تخدعنا المظاهر عن اللباب ، فننحرف عن معانى العدل والحكمة والصبر والاتزان فى المواقف التى تتطلب ذلك .

أن الزهد الصوفى يوضح لنا معنى الحياة ، ويجعلنا نقبل عليها ، ونفهمها فهما يختلف عن فهم الماديين لها ، فالمادية تجعل أصحابها لا يحسون الأشياء ولا يرونها إلا بفكر يقولون عنه أنه الصورة الأخيرة لتطور المادة التى تدرك قيمة ذاتها . وهم بذلك المنطق ينسون أن تفاوت الطاقات فى الفكر البشرى ينفى رأيهم ويهدمه ، لأنه لو صح أن الفكر مادى ومتطور عن المادة . لما كان هناك تفاوت فى الطاقة بين فكر وفكر ؛ إلا إذا كان كل فكر منتمياً إلى نوع معين من المادة ، وهذا شىء يدعو إلى الضحك والسخرية .

أيها السادة .

أن المفاهيم الحقيقة للتصوف تخلق فى صاحبها طاقة تدفعه إلى الحركة وتفيض عليه الحياة ، وتهىء له سبيل النجاح .

أنه قوة ايجابيه ، وطاقة معينه على التطور ، وهو بهذا المعنى روح الدين . هذه الروح التى تتطلب الرعاية الكاملة لتطبيق مبادىء الإسلام وعقائده . تلك المبادىء والعقائد التى أنزلها خالق الكون على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم . وجعلها صالحة للحياة فى كل مكان ، وهى تعبير صادق عن الحياة التى تستوجب الإيجابية فى التنفيذ كما تتطلب التطور المستمر للمجتمع البشرى حتى يسير مع خط الحياة الصاعد أبداً

ولن يكون مفهوم الزهد فى التصوف إلا الزهد فيما نهى عنه الدين ، والزهد فى المحرمات ، والزهد فى الطمع والجشع والأستغلال .

أن الخوف والرجاء فى التصوف يدفعان إلى أن يعمل كل فى ميدانه متوخيا الدقة والتجديد والأبتكار والإخلاص ، فلا تهاون فى حقوق المجتمع ولا فى حقوق الوطن ولا فى واجب الدين .

والأنسانية بفهمها لهذه الأصول ، وما يترتب عليها من فروع ، باتجاهها إلى ذلك تستطيع أن تتوحد وتتعاون وتقضى على عوامل القلق ، وتستثمر ماديا تها استثمارا شريفا كاملا ، يكفل لكل فرد حياة فيها رخاء ، وفيها نعيم ، لأن الغاية حينذاك تكون واضحة ، والسبيل ممهدة ، فيعمل كل فرد ، وهو آمن أن أجره لن ينقص ، وأن سعيه لن يخيب ، لأن الحب يسود المجتمع ، والوعى الفكرى يقدر لكل حال ظروفها وملابساتها ، فيفنى كل فى عمله ويسعى لإجادته ، ويضحى من ذات نفسه لأجل المجموع . .

وبهذا أيضا يتحقق السلام ، ويسود الصفاء ، ويقضى على التطاحن والصراع والحروب ، ويعيش الجميع فى عدالة ومحبة .